نَقْدُ الشَّعَائِر

من جهة الاستهزاء وهتك الدين

من كتاب: فقه الشعائر الدينيّة
النهج الإلهي لإبقاء الدين وإحياء الأمّة

آية الله الشيخ
فَاضِل الصَّفَّار

الناشر

Shia-Documents

نقد الشعائر

من جهة الاستهزاء وهتك الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكـر المعترضـون أنّ تعظيـم الشـعائر وإن كان عنوانـاً راجحـاً شرعـاً بحسـب عنوانـه الأوّلي ، إلاّ أنّـه لا يصـحّ القيـام بـه ، لا سـيّما في مثـل هـذه الأيّـام التـي غلـب فيهـا الفسـاد ، وسـادت ثقافـة الضلالـة والابتعـاد عـن الديـن وقيمـه، وذلـك لأنّـه مبتـلى بالمانـع ، والمانـع هـو أنّ غـير المتديّنـين أو غـير المسـلمين حيـث لا يتفهّمـون بعـض مظاهـره قـد يتنـافى في أنظارهـم مـع غايتـين مهمّتـين مـن غايـات الديـن وأحكامـه .

الأُولى : وجـوب احـترام المؤمـن وحفـظ مكانتـه ، فـإنّ تعظيـم الشـعائر يوجـب الاسـتهزاء بالمؤمنـين المعظّمـين للشـعائر ، ولا يجـوز للمؤمـن أن يـذلّ نفسـه ، ويجعلهـا في معـرض الاسـتهزاء والسـخرية ، وعليـه يجـب تـرك التعظيـم تحقيقـاً لهـذا الغـرض .

الثانيـة : وجـوب حفـظ حرمـة الديـن وحفـظ مكانتـه بـين النـاس ، وحيـث إنّ تعظيـم الشـعائر يوجـب هتـك الديـن وانتقـاص حرمتـه في أنظـار الآخريـن فـلا يجـوز تعظيمهـا .

والخلاصـة : أنّ عنـواني الاسـتهزاء والهتـك يوجبـان المنـع مـن تعظيـم الشـعائر ; لأنّهـما عنوانـان ثانويـان حاكـمان عـلى العنـوان الأوّلي .

ونلاحظ أنّ هذا الاعتراض يتضمّن إشكالين :

أحدهما : الاستهزاء وهو يتعلّق بالمتديّن .

وثانيهما : الهتك ويتعلّق بالدين نفسه .

ومن هنا سنتعرّض في الاجابة على كلّ واحد منهما على حدة .

أوّلا : تعظيم الشعائر والاستهزاء

الاستهزاء لغة وعرفاً كلّ ما يوجب السخرية والاستخفاف والتسفيه[1]، ويتعلّق بالقبائح من الأفعال ، وهو كذلك اصطلاحاً ، وهو من المحرّمات إذا تعلّق بشيء له كرامة ; لأنّه يوجب هتك حرمته والانتقاص منه ، وسببه يعود لأمرين :

أحدهما : أن يكون الشيء في نفسه يستحقّ الاستهزاء ; لأنّه منتقص حقيقة ، نظير الاستهزاء بالمنافقين والمتكبّرين ; إذ قال سبحانه : **(اللهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)**[2].

وثانيهما : أن يكون الشيء ذا كرامة ومكانة ، إلاّ أنّ الجاهلين بذلك يستهزئون به بسبب انحراف في الطبع ، أو ضلالة في الفكر ، أو مصلحة خاصّة، نظير استهزاء الكفّار بالأنبياء والأولياء لمثل هذه الدواعي ; إذ قال سبحانه : **(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)**[3].

ومن هنا ينقسم الاستهزاء إلى قسمين : صادق وكاذب ، ويتعلّق الأوّل بما كان جديراً بالاستهزاء بسبب نقصه واستهانته ، والثاني يتعلّق بما هو محترم وجدير بالتكريم ، والأوّل صفة أهل الحقّ ، والثاني صفة أهل الباطل.

وتؤكّد وقائع التأريخ والسيرة العامّة في الحياة البشرية أنّ أهل الحقّ ابتلوا

---

١ - مجمع البحرين : ج١ ، ص٤٧٧ ، (هزأ) ; معجم مقاييس اللغة : ص١٠٣٧ ، (هزأ) .

٢ - سورة البقرة : الآية ١٥ .

٣ - سورة يس : الآية ٣٠ .

بالاستهزاء والانتقاص وهتك الكرامة دائماً ، بل قد عرفت أنّ أنبياء الله سبحانه لم ينجوا جميعاً من هذه المشكلة ; لأنّه نهج يتبعه عادة الجاهلون وأصحاب المصالح في مواجهة دعواتهم الحقّة ، وكانوا يواصلون هذا الأُسلوب ليل نهار، وبهذا الأُسلوب يريدون التوصّل إلى غايتين : هما تصغير شأن النبي (صلى الله عليه وآله) وشأن رسالته ; ليصاب بالهزيمة النفسية فيتراجع عن دعوته ، فإن لم تتحقّق هذه تحقّقت الغاية الثانية ، وهي تضعيف مكانته بين الناس لكي لا يستمعوا له أو يتّبعوه .

ومن هنا طيّب القرآن قلب النبي (صلى الله عليه وآله) حينما واجهه قومه بهذا السلاح فقال سبحانه : (**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**)[1].

وعليه فإنّ وقوع الاستهزاء من قبل الجاهلين بالحقّ أو اتّباع الباطل يدلّ على أهميّة ما استهزؤوا به وعلو مكانته ورتبته ، كما يلزم المؤمنين مزيداً من التعظيم والتقديس له ; لوضوح أنّ هتك حرمة ما عظّمه الله سبحانه ورفعه يوجب على المكلّفين إظهار مكانته وتعظيمه نصرة للحقّ ، وطمساً للباطل ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، ونحو ذلك من عناوين شرعية لها ملاك مهم .

ومن هنا نلاحظ أنّ الشعائر الدينية ولا سيّما ما يتعلّق بعترة النبي (صلى الله عليه وآله)ومكانتهم الإلهية السامية واجهت ولا زالت بعض الدعايات والتلفيقات لأجل تضعيفها ; لأنّها الوسيلة القويمة التي توجب تقوية الدين وإحياء أمره، وتحفظ مكانته ومبادئه بين الناس .

فقد ورد عن الصادق (عليه السلام) ، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)،

---

١ - سورة الأنعام : الآية ١٠ .

عن النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) أنّه قال : «**من زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام ، وخرج من ذنوبه حتّى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أُمّه، فابشر وبشّر أولياءك ومحبّيك من النعيم وقرّة العين بما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولكن حثالة من الناس يعيّرون زوّار قبوركم كما تعيّر الزانية بزناها ، أُولئك شرار أُمّتي لا أنالهم الله شفاعتي ولا يردون حوضي**»[1].

والحثالة كلّ ما فيه سوء وحقارة[2]، ووجه التعيير يعود إلى إنكار مقاماتهم (عليهم السلام) ، أو إنكار الزيارة كأُسلوب للتعظيم والتجليل ، أو يعود إليهما مجتمعين ، والتشبيه يدلّ على شدّة الاستهزاء والقباحة التي تقع في أنظار هؤلاء ضدّ الزائرين .

وظاهر الحديث أنّ منشأ الاستهزاء هو الجحود والعناد ، ولذا وصفهم بالمعاندين ، ودعا بحرمانهم من الشفاعة التي تنال جميع الناس إلاّ من كان معادياً لآل محمّد (صلى الله عليه وآله) ، وليس في قلبه حبّ لهم ، وذلك لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) دعا على المستهزئين بالحرمان من الشفاعة في الوقت الذي قال (صلى الله عليه وآله) : «**خبّأت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي**»[3].

ويدلّ منطوق الحديث على أنّ المستهزئين لا يكونون من الكفّار ، بل من المسلمين أنفسهم ، وهذا ينطبق على مثل الحزب الوهابي ونحوه من أتباع محمّد بن عبدالوهاب الذين يكفّرون كلّ الناس ، ويعيبون عليهم دينهم .

وفي صحيح معاوية بن وهب قال : استأذنت على أبي عبدالله (عليه السلام)

---

١ - بحار الأنوار : ج٩٧ ، ص١٢١ ، ح٢٢ .

٢ - أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص٢٧٨ ، (حثل) ; مجمع البحرين : ج٥ ، ص٣٤٨ ، (حثل) .

٣ - أمالي (الطوسي) : ص٣٨٩ ، ح١٣ ; وانظر الخصال : ص٣٥٥ ، ح٣٤ .

فقيل لي : أُدخل ، فدخلت فوجدته في مصلاّه في بيته ، فجلست حتّى قضى صلاته ، فسمعته وهو يناجي ربّه وهو يقول :

«اللهمّ يامن خصّنا بالكرامة ، ووعدنا بالشفاعة ، وخصّنا بالوصية، وأعطانا علم ما مضى وعلم ما بقي ، وجعل أفئدة من الناس تهوي إلينا اغفر لي ولإخواني وزوّار قبر أبي عبدالله الحسين الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا ... وإجابة منهم لأمرنا ، وغيظاً أدخلوه على عدوّنا ، أرادوا بذلك رضوانك ... اللهمّ إنّ أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا ، خلافاً على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشمس ، وارحم تلك الخدود التي تتقلّب على حفرة أبي عبدالله الحسين (عليه السلام) ، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا ، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا ، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا ، اللهمّ إنّي أستودعك تلك الأبدان وتلك الأنفس حتّى توافيهم من الحوض يوم العطش»[1] ويتضمّن الحديث الدلالة على عدّة حقائق :

الأُولى : علو مكانة زائر الحسين (عليه السلام) ومقامه عند الله سبحانه وأوليائه ودرجة الفضل والثواب التي يصلها في طريق الزيارة .

الثانية : أنّ هذا الجزاء الوفير يترتّب على الصبر في طريق الزيارة إعظاماً لشأن الحسين (عليه السلام) ومخالفة لأعدائه ، وتحمّلا للتّهم والافتراءات والتعيير الذي يوجّهه هؤلاء الأعداء للزائر .

الثالثة : أنّ هذا المقام العظيم يناله الزائر بشرطين أحدهما يكمل الآخر ، وكلاهما يجتمعان تحت عنوان تعظيم الشعائر ، وهما التولّي والتبرّي، فإذا زار الزائر برّاً بالأئمّة وإحياءً لأمرهم وإغاظة لأعدائهم ينال هذا الشرف

---

١ - كامل الزيارات : ص٢٢٨ ٢٢٩ ، ح٢ .

العظيم، ويكون مشمولا بدعاء الإمام (عليه السلام) .

وقد تضمّن الدعاء سرّاً من الأسرار أشار إليه قوله : « اللهمّ إنّي أستودعك تلك الأبدان وتلك الأنفس حتّى توافيهم من الحوض يوم العطش » فإنّه دالّ على أنّ بدن زائر الحسين (عليه السلام) الذي يزوره بنيّة التولّي والتبرّي وتوفّرت شروطه الأُخرى يكون محفوظاً في القبر حتّى الحشر ، وكذا نفسه فلا تصاب بالذهول والخوف في البرزخ .

والحاصل : نلاحظ من منطوق الحديث أنّ الإمام (عليه السلام) لم يبال بالاستهزاء ، ولم يدع المؤمنين إلى ترك الزيارة هروباً منه ، بل حثّ عليه بلسان الثواب والفضل الذي يناله الزائر في زيارته ، وهذا يدلّ على أنّ الاستهزاء إذا صدر من أهل الباطل لا ينبغي أن يعتنى به ، بل ينبغي أن يزاد أكثر وأكثر خلافاً للمستهزئين والمعاندين ، فكلّما زاد الاستهزاء زاد التعظيم ; لأنّ المسألة تدخل في باب النصرة والدفاع عن الحقّ وأهله .

ومن هنا حثّ الإمام الصادق (عليه السلام) في رواية أُخرى المزدحمين على قبر الإمام الحسين (عليه السلام) والمحبّين لشعائره على مواجهة الجاهلين والمستهزئين بالصبر والتحدّي بقوله (عليه السلام) : «**والله لحظّهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمّد (صلى الله عليه وآله) تباعدوا**»[1] ومنطوقه صريح في أنّ الذين يستهزئون كانوا من المسلمين .

وفي رواية ذريح المحاربي لمّا قال له (عليه السلام) إنّي إذا ذكرت فضل زيارة أبي عبدالله (عليه السلام) هزأ بي ولدي وأقاربي ، فقال (عليه السلام) : «**ياذريح دع الناس يذهبون حيث شاؤوا**»[2] أي كن معنا .

---

١ - كامل الزيارات : ص٤٩٣ ، ح١١ ; تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٤٥ ، ح٩٧ .

٢ - كامل الزيارات : ص٢٧٢ ، ح٥ .

ويتأكّد هنا أنّ الأُسلوب الذي يريده الأئمّة (عليهم السلام) في مواجهة المستهزئين هو الصبر والمواصلة لا الانسحاب ; إذ لا يضرّ استهزاء المستهزئين بعد تمسّك المؤمن بالحقّ والصواب ، ولقد سخر اليهود بالأذان من قبل كما سخر المشركون بالسجود في الصلاة ، وكان ذلك مدعاة لمزيد العمل والتمسّك بالنهج الإلهي القويم من قبل المسلمين غير مبالين بدعوات هؤلاء الباطلة .

ويستفاد من بعض الأخبار أنّ الاستهزاء لم يقف عند الاستخفاف ، بل تمادى إلى الطعن بالزائر ، ورغم ذلك حثّ الأئمّة (عليهم السلام) على الصبر وعدم المبالاة به ، فقد قال (عليه السلام) لحمّاد : «**بلغني أنّ قوماً يأتونه من نواحي الكوفة وناساً من غيرهم ونساء يندبنه وذلك في النصف من شعبان ، فمن بين قارئ يقرأ ، وقاصّ يقصّ ، ونادب يندب ، وقائل يقول المراثي**» فقال حمّاد : نعم جعلت فداك قد شهدت بعض ما تصف . قال (عليه السلام) : «**الحمد لله الذي جعل في الناس من يغد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا ، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم يهدّدونهم ، ويقبّحون ما يصنعون**»[1]. ويتّضح من كلّ ما تقدّم أُمور :

الأوّل : أنّ أُسلوب الاستهزاء كان موجوداً منذ زمان النبي والأئمّة(عليهم السلام) ، وهو نهج لا ينتهي ; لأنّ دواعيه العناد والمحاربة .

الثاني : أنّ بعض المسلمين يقعون في هذا المأزق الخطير ، وأنّ مصيرهم هو الخروج عن الإيمان .

الثالث : أنّ النهج المطلوب شرعاً والمستفاد من كلمات النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمّة (عليهم السلام) هو مواصلة الطريق وعدم المبالاة بالاستهزاء مهما كانت دواعيه، وإذا لاحظنا مثل هذه النصوص والمعاني المستخلصة منها

---

١ - **كامل الزيارات : ص٥٣٩ ، ح١ .**

تتّضح أبعاد التشكيك وغاياته ، والنتائج الحاصلة منه .

إذا عرفت هذا نقول : إنّ دعوى تعظيم الشعائر يوجب الاستهزاء بالمؤمنين مبتلاة بالكثير من الضعف .

أوّلا : لأنّها دعوى لا تستند إلى دليل ، بل هي دعوى موهومة في نفسها، وإن كانت فهي من قبل القليل النادر الذي لا ينبغي أن يعتنى بقوله; لما عرفت ممّا مضى أنّ تعظيم الشعائر من القضايا التي يتّفق عليها العقلاء فضلا عن أهل الأديان ; بداهة أنّ كلّ قوم ودين لهم شعائر يعظّمونها ويقدّسون مظاهرها ومراسمها ، وهو أمر تقرّه الأعراف والقوانين الدولية ، بل إنّ عقلاء العالم يحترمون كلّ من يحترم شعائره ورموزه، ويعتبرون ذلك من علائم قوّة الشخص وعلو همّته ، ومع هذا المنحى العام لجميع العقلاء كيف يدّعى أنّ تعظيم الشعائر يوجب الاستهزاء ؟

ثانياً : أنّ الاستهزاء لا يتوجّه إلى شيء إلاّ بسبب ، وقد عرفت أنّ السبب لا يخلو إمّا أن يكون جهلا أو عناداً ومكابرة ، فإن كان الأوّل فلا يعالج بالتخلّي عن الشعائر بدعوى الاستهزاء ، بل ببيان مكانة الشعائر وأهميّة تعظيمها ، وإلاّ انتقض الغرض من الدين ; لأنّ ذلك يستلزم أن تطبّق هذه الضابطة على جميع الأحكام ; إذ لا خصوصية لتعظيم الشعائر في هذا المجال ، فإذا كان الاستهزاء يوجب التخلّي عن الشعيرة لوجب التخلّي عن جميع الأحكام التي يستهزأ بها ، وبالعاملين بها ; لأنّ حكم الأمثال واحد فيما يجوز ولا يجوز ، وعلى كلّ تقدير فإنّ هذه الدعوى تنطوي على اعتزال الدين والتخلّي عن أحكامه .

وإن كان عناداً ومكابرة فهو أيضاً لا يمكن الركون إلى أقواله واستهزائه; لأنّه ناشئ من العداء والخصومة ، والعدو لا يريد رفع اليد عن تعظيم

الشعائر فقط ، بل عن عموم الدين ، وغايته تضعيف المتديّنين ، فالاستماع إلى قوله يحقّق هذه الغاية ، وينقض الغرض من الدين .

ثالثاً : أنّ الاستهزاء بالدين أو بشعائره من صنف الاستهزاء الكاذب، وهو في الغالب يهوّل بجو من الإعلام الكاذب الذي يُضخّم الأُمور ، ويقلب الحقائق ، فيصيّر الحقّ باطلا والباطل حقّاً ; لدوافع سياسية ودنيوية ، والعقل والشرع يتّفقان على عدم جواز الاستماع له فضلا عن الاستجابة ; لأنّه من مصاديق اتّباع الباطل وخذلان الحقّ ، وتقوية الكذب والضلالة في مقابل الدين ، وقد أخبر النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) عن مجيء زمان تنقلب فيه الحقائق ، ويصبح القبيح حسناً ، والحسن قبيحاً ، وممّا يزيد الأمر أسفاً هو أنّ بعض المسلمين يتأثّرون بهذا الانحراف وينساقون إلى أفكاره .

ففي الكافي عنه (صلى الله عليه وآله) : « **كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر** ؟ فقيل له : ويكون ذلك يارسول الله ؟ فقال : **نعم وشرّ من ذلك . كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف** ؟ فقيل له : يارسول الله ويكون ذلك ؟ قال : **نعم ، وشرّ من ذلك. كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً** ؟ »[1].

والحلّ حينئذ يكون بتقوية الدين ونشر فضائله وأحكامه ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحشد المؤمنين في هذا النهج القويم ، وذلك لا يكون إلاّ بإحياء الشعائر وتعظيمها ، لما تتضمّنه من مراسم وفعّاليات جماعية تبليغية ودفاعية كبيرة .

ورابعاً : سلّمنا كلّ ما ذكر جدلا ، إلاّ أنّ تعظيم الشعائر حكم شرعي يؤدّيه المؤمنون تديّناً منهم ; لنيل الفضل والتقرّب إلى الله وتحصيل الثواب ،

---

١ - الكافي : ج٥ ، ص٥٩ ، ح١٤ .

وهـو بعنوانـه الأوّلي ذو مـلاك قـوي لا يمكـن أن يرفعـه حكـم مزاحـم، وإن كان بالعنـوان الثانـوي عـلى مـا عرفـت تفصيلـه .

فيتحصّـل مـن كلّ مـا تقـدّم : أنّ دعـوى ملازمـة تعظيـم الشـعائر للاسـتهزاء لا تسـتند إلى وجـه وجيـه ; لأنّهـا إمّـا موهومـة في نفسـها ; إذ لم يسـتهزئ بالشـعائر الدينيـة إلاّ جاهـل أو معـاد ، وعـلى كلّ تقديـر لا يمكـن التصديـق بـما يقولـه الجاهلـون أو المعـادون ، بـل ينبغـي إظهـار مزيـد التعظيـم لأجـل تقويـة الديـن ومنـاصرة حقائقـه ; لأنّ الاسـتماع لـه قبيـح عقـلا وحـرام شرعـاً إذا ترتّـب عليـه عنـوان تضعيـف الديـن وخـذلان المتديّنـين .

وهنا نلفت النظر إلى أمرين مهمّين :

الأمـر الأوّل : أنّ معالجـة الاسـتهزاء لا تتحقّـق بالخضـوع لـه ، بـل بمعالجتـه بطريقـين :

أحدهما : هجومي بواسطة فضح المستهزئين وكشف باطلهم .

وثانيهـما : توجيهـي إرشـادي يحقّـق تعظيـم الشـعائر أهدافـه وغاياتـه الشرعيـة، وهـذا هـو الأُسـلوب الـذي نـصّ عليـه الـشرع ، وجـرت عليـه سـيرة العقـلاء في مختلـف المجـالات لـدى تعرّضهـم إلى مثـل هـذه الحالـة .

الأمـر الثـاني : أنّ للفقيـه الجامـع للشرائـط أو مجلـس شـورى الفقهـاء إذا وجـدا هنـاك ضعفـاً في المسـلمين أو ضرراً كبـيراً بالديـن أو بالمتديّنـين أن يوجّهـا بعـدم ممارسـة التعظيـم لبعـض الشـعائر مـن بـاب التزاحـم والأهـمّ والمهـمّ ، ولكـن يشـترط فيـه شروط :

أحدهـا : أن يكـون ذلـك عـن تشـخيص دقيـق للمـلاك الأهـم ، بحيـث يتّفـق عليـه جـلّ أهـل الفقـه والخـبرة أو أكثرهـم .

ثانيهـا : أن يكـون الـضرر والضعـف نوعيـاً لا شـخصياً ، وإلاّ فـإنّ الآراء الشـخصية أو الأضرار ونحوهـا لا تفـارق الأحـكام وتطبيقاتهـا عـادة .

ثالثهـا : أن يكـون التوجيـه موقّتـاً لا دائـماً ; لأنّ المنـع مـن الـضرورات، وهـي تقـدّر بقدرهـا .

رابعهـا : أن ينحـصر طريـق الحـلّ بذلـك ، وذلـك بـأن تنعـدم أسـاليب التوضيـح والإرشـاد بحيـث لا يمكـن الجمـع بـين دفـع الـضرر المذكـور وبـين الحفـاظ عـلى تعظيـم الشـعائر ، وإلاّ فـإنّ التشـديد في تعظيـم بعـض الشـعائر لا سـيّما التـي يتخـوّف منهـا أعـداء الديـن والمتديّنـين يعـدّ مـن مقتضيـات الحكمـة; لأنّـه يقـوّي شـوكة المؤمنـين ، ويشـدّ أزرهـم عـلى الصـبر والمقاومـة ، ويبعدهـم عـن نهـج الضعـف والاستسـلام ; لأنّ التمسّـك بالديـن والاحتفـاظ بأحكامـه مـن المـلاكات المهمّـة التـي لا ينبغـي رفـع اليـد عنهـا ، لا سـيّما في المواجهـة .

وكيـف كان ، فهـذه جميعـاً مـن مهـمّات الفقيـه ، فهـو المعنـي بإحـراز موضوعهـا وبيـان حكمهـا ، ولا يصـحّ لغـير المجتهـد الحكـم بهـا .

ثانياً : تعظيم الشعائر والهتك

الهتـك في معنـاه اللغـوي ومفهومـه العـرفي غـير الاسـتهزاء ، فـإنّ الاسـتهزاء مأخـوذ مـن السـخرية والتسـفيه ، ولـذا يتعلّـق غالبـاً بالأشـخاص ، وأمّـا الهتـك فهـو كشـف السـتر وتمزيقـه وفضـح مـا وراءه ممّـا لا ينبغـي أن يفضـح[1]، وأُريـد بـه هنـا أن ينسـب إلى الديـن مـا يوجـب وهنـه وضعفـه وانتقـاص حرمتـه ، وإنّـما أُطلـق عليـه هـذا اللفـظ مـن بـاب الملازمـة ; إذ إنّ الهتـك مـلازم للضعـف . هـذا مـن حيـث الموضـوع ، وأمّـا مـن حيـث الحكـم فـلا إشـكال في حرمـة ارتـكاب مـا

---

١ - أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص١٠٢٤ ، (هتك) ; لسان العرب : ج١٠ ، ص٥٠٢ ، (هتك) ; مجمع البحرين : ج٥ ، ص٢٩٨ ، (هتك) .

يوجب ضعف الدين وانتهاك حرمته .

بل أمر الباري عزّوجلّ بإعزاز الدين وإعلاء شأنه وكلمته ; لأنّ إعزاز الدين هو إعلاء شأن الله وكلمته ; إذ قال سبحانه في لسان الإنشاء: **(وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)**[1] وقال بلسان الإخبار في مقام الإنشاء: **(وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا)**[2] ونفى في مقام النهي أي نحو من أنحاء العلو والرفعة للكفّار على المسلمين ; إذ قال سبحانه : **(وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا)**[3].

وفي الأخبار الشريفة : «**الإسلام يعلو ولا يعلى عليه**»[4] ومنطوقه خبري في مقام الانشاء ، إلى غير ذلك من النصوص الدالّة على وجوب إعلاء الدين وإحياء أمره وصونه من كلّ ما يشينه أو ينتقص منه على ما حقّقناه في محلّه[5].

وعليه فإنّه إذا استلزم تعظيم الشعائر هتكاً للدين وانتقاصاً من مكانته يجب تركه والتخلّي عنه ; لأنّ حفظ قيمة الدين ومقامه أهمّ ملاكاً وأعظم حرمة ، وهذا من حيث الكبرى من الحقائق المسلّمة التي لا ينبغي وقوع الكلام فيها إذا تحقّقت بشروطها[6]، وإنّما الكلام في الصغرى ، وهو إدعاء أنّ تعظيم الشعائر الدينية يستلزم هتك الدين وانتقاصه ، فإنّ هذا هو الذي بنى عليه المعترض إشكاله ، إلاّ أنّ الحقّ الذي يقتضيه التحقيق هو خلاف ما ادّعي ، وذلك لأسباب .

السبب الأوّل : أنّ المقصود من هتك الدين مجمل ; إذ لم يبيّن المعترض مقصوده من ذلك ، وإنّما اكتفى في الغالب ببيان الإشكال ، ودعا إلى التخلّي

---

١ - سورة المنافقون : الآية ٨ .

٢ - سورة التوبة : الآية ٤٠ .

٣ - سورة النساء : الآية ١٤١ .

٤ - المبسوط : ج٢ ، ص١٣٠ ; من لا يحضره الفقيه : ج٤ ، ص٣٣٤ ، ح٥٧١٩ ; عوالي اللآلئ : ج١ ، ص٩٦ ، ح٨ .

٥ - أُنظر كتاب فقه العلو والارتقاء (للمؤلّف) .

٦ - سيأتي في بحث الشعائر الحسينية مناقشة الشروط وتحديد المراد من هذه الكبرى .

عـن تعظيـم الشـعائر أو بعضهـا ، ولعـلّ المقصـود يحتمـل معنيـين :

الأوّل : يـراد منـه أنّ تعظيـم الشـعائر ليـس مـن الديـن ، وإنّـما أُقحـم في الديـن مـن دون دليـل معتـبر ، ومـن الواضـح أنّ تعظيـم مـا هـو باطـل في نفسـه وليـس بصحيـح يهتـك الديـن وينسـبه إلى البطـلان ، وهـذا يهتـك الديـن في أنظـار المتديّنـين فضـلا عـن غـير المتديّنـين عصيانـاً أو جحـوداً .

الثـاني : يـراد منـه أنّـه مـن أحـكام الديـن ، وقد قـام الدليـل المعتـبر عليـه ، إلاّ أنّ امتثـال الحكـم الشرعـي بـه يوجـب هتـك الديـن في أنظـار غـير المتديّنـين ، أو غـير المؤمنـين بالديـن ، ولا يمكـن القـول بـالأوّل ; لوضـوح فسـاده، فيتعـيّن الثـاني; لعـدم وجـود احتـمال ثالـث ناهـض ، إلاّ أنّ هـذا الاحتـمال لا يسـتدعي التخـلّي عـن تعظيـم الشـعائر ; لمـا عرفـت مـن أنّ هـذا احتـمال موهـوم وليـس بحقيقـي ; إذ إنّ سـيرة العقـلاء وسـائر الأعـراف والقوانـين الدوليـة تعتـبر تعظيـم المقدّسـات والحرمـات مـن القضايـا الضروريـة في كلّ قـوم وديـن ، وإذا أورث هـذا التصـوّر في أنظـار البعـض القليـل شـائبة مـا فـإنّ مضرّتـه لا يعتـدّ بهـا في مقابـل أهميّـة تعظيـم شـعائر الديـن وإحيـاء أمـره بـين النـاس . هـذا أوّلا .

وثانيـاً : أنّ هـؤلاء القلّـة القليلـة الذيـن ينتقـص الديـن في أنظارهـم لا يخلـون مـن ثلاثـة أصنـاف : جاهلـين بالديـن وجاحديـن منكريـن لـه وأعـداء محاربـين لـه ، ولأجـل هـذا التصـوّر لا يمكـن رفـع اليـد عـن تعظيـم الشـعائر إرضـاءً لهـؤلاء ، أو إسـكاتاً لهـم ; لأنّ الجاهـل إن كان منصفـاً يمكـن تعريفـه بحقيقـة الشـعيرة وأهميّتهـا في الـشرع والعقـل فيرتفـع محـذوره ، وأمّـا المنكـر والمحـارب فلأنّهـما هاتـكان للدين بإنكارهمـا أو محاربتهـما لـه ; إذ لا شـكّ في أنّ الكفـر بالديـن أو نصـب العـداء لـه أشـدّ هتـكاً مـن الهتـك الـذي يتصـوّر في تعظيـم الشـعائر ، وعليـه فـإنّ التخـلّي عـن تعظيـم الشـعائر دفعـاً للمحـذور المذكـور بـلا فائـدة ، بـل هـو ترجيـح للمرجـوح .

على أنّ الأحكام التي قد توجب هتك الدين في أنظار هؤلاء كثيرة، وهي لا تقف عند حد عند المحاربين للدين والمعاندين لأحكامه، ولذا فإنّ رفع اليد عن تعظيم الشعائر من هذه الجهة يستدعي رفعها عن غيره من الأحكام إذا أدّت إلى الهتك[1]; لوحدة العلّة والمناط، والقول برفع اليد عن جميعها يهدم الدين ، ويخالف الضرورات الدينية التي لا يمكن رفع اليد عنها بحال من الأحوال .

السبب الثاني : أنّ الحكم الفيصل في تحديد هذا المدّعى مجهول ; إذ لم يحدّد المعترض ما هو المعيار والضابطة التي يرجع إليها في تحديد أنّ هذا النحو من التعظيم يوجب هتكاً للدين ، ومن هو الذي يملك هذه الضابطة ، ويعيّن حدودها ، إلاّ أنّ الأُصول الشرعية والقواعد العقلية تقضي بأن يكون الفيصل هم الفقهاء ; لأنّهم أهل خبرة بالدين ، وأعرف بما يضرّ بالدين وما لا يضرّه، فلذا ينبغي الرجوع إليهم في تشخيص ذلك موضوعاً وحكماً، وليس لكلّ أحد أن يتصدّى لهذا ويفتي في الأمر وهو ليس بمجتهد ولا خبير ; لأنّ الأمر من الموضوعات المستنبطة أو الخفية التي يجب الرجوع فيها إلى أهل الخبرة والفقاهة ، بل حكم غير الفقيه في مثل هذه الموارد يكون من مصاديق الافتاء بغير علم ، وهو من كبائر المحرّمات ، بل هو في نفسه جرأة على الدين وهتك لكرامته .

والملحوظ أنّ الفقهاء متّفقون على أنّ تعظيم الشعائر من العناوين الواجبة في الجملة والمستحبّة في تفاصيلها ، وأنّه لا يوجب هتك الدين وإن أوجب بعض الشيء فلم يصل إلى درجة المنع والتحريم ; لوضوح أنّ التحريم يفتقر

---

١ - كما قد يدّعى بأنّ تكليف المرأة بلبس الحجاب يقيّد المرأة ، وهو يوجب هتك الدين في أنظار دعاة تحرير المرأة حتّى من اللباس ، ومثله قد يدّعى في منع الاختلاط بين الرجال والنساء ، وأداء بعض مناسك الحّج ، كلبس الإحرام والحلق والهدي والرمي ونحوها .

إلى دليل ، وإن خالف في ذلك بعضهم فإنّ مخالفة الفرد النادر لا يمكن أن تؤسّس حكماً نوعياً عاماً يشمل جميع الناس ; لأنّ الرأي العام يمثّله الأكثر لا الشاذّ النادر . هذا فضلا عن أنّ قوله يكون حجّة على مقلّديه فقط ، ولا يمكن أن يمثّل رأي المذهب الذي يتقوّم برأي الكل أو الجل . نعم لو افترضنا أنّ الفقهاء شخّصوا وجود الهتك فإنّه يجوز المنع حينئذ ضمن الشروط الثلاثة التي ذكرناها في الاستهزاء .

السبب الثالث : ما تقدّم غير مرّة من أنّ ملاك تعظيم الشعائر الدينية من أهمّ الملاكات الشرعية التي لا يمكن أن يمنعه ملاك مزاحم بعنوان أوّلي أو ثانوي ; لأنّ بالتعظيم يبقى الدين حياً حاكماً بين الناس ، وهذا الملاك أقوى من هتكه في أنظار بعض الجاهلين أو المعاندين أو المحاربين كما هو واضح .

وربما يقال بإمكان الجمع بين الملاكين وذلك بتعظيم الشعائر التي لا توجب الهتك في أنظار هؤلاء ، إلاّ أنّه غير مجد ، لا سيّما في مثل هذه الأزمنة التي أصبح التواصل بين العالم ميسوراً ، ولم يبق شيء مستور لا يعرفه القاصي والداني ، فلذا يكمن الحل في مزيد التبليغ والتفهيم ونشر الفكر الحقّ وترويج الدين ومبادئه بين الناس ; ليتفهّموا حقيقة الدين وغاياته التي لا يدنوها نقص أو خلل يمكن أن يوجب السخرية أو الهتك .

فيتحصّل من كلّ ما تقدّم : أنّ الإشكالات التي أُوردت على تعظيم الشعائر الدينية من جهة المقتضي أو من جهة المانع لم تنهض في مقابل أهميّة تعظيمها وإحيائها ; لأنّ إحياء الشعائر هو إحياء للدين ، وتعظيمها هو تعظيم لمبادئ الدين وإظهار لقوّة المتديّنين وتماسكهم وتلاحمهم تحت هدف واحد وراية واحدة ، وفي ذلك من الدلالات ما يستدعي مواصلة هذا النهج وترويجه في كلّ زمان ومكان ، وهذا ما تستدعيه الضرورة العقلية والشرعية والعقلائية .

قال تعالى : (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1].

١ - سورة التوبة : الآية ٣٢ .